

حبس بحيرة قدس

للأب هنري لامنس اليسوعي

مربة بقلم الملم رشيد المروري الشرتوني (تابع لاسبق)

ولسوء الحظ حدث انه لما عاد رئيس الشمامسة المذكور شاهد انقلاباً عظيماً في استعدادات بطريركه لان رصيفه بطريرك القسطنطينية استاء من مذاكراته مع رومية وما زال يعمل على تغيير افكاره حتى استماله الى ما أراد. ولا عجب في ذلك فان بطريرك اطاكية هذا كان سريع القلب طائش الرأي لانه بعد ان وقع لاول مرة بجمع فلورنسة بواسطة معتمده ايزيدور رئيس اساقفة كيف عاد فخرمه في مجيعين من الاساقفة انقدا في اورشليم والقسطنطينية (١٠١). واذا كان قد سير موسى رئيس الشمامسة الى رومية فانما قصد من ذلك مرضاة بعض الاساقفة التابعين له واستماله القدم رزق الله اليه فكل ما عمله اذا قد تحرى به التسريف واغتنام الوقت

على انه تقبل بالاحترام رسالة البابا وبعد ان اطلع عليها قال: « سنتذكر في شأنها مع اخوتنا الاساقفة لان اقصى امانتنا ان نرى الاتحاد ناشراً لواءه بين جميع المسيحيين »

وما كان منه هذا الكلام في الحقيقة سوى اسلوب ادبي لطيف للتخلص من البحث في مسألة الاتحاد. وكان البطريرك المذكور كاتر الاشخاص الطاغين في السن يتردد كثيراً ولا يجزم بشي. ولما اجتمع الاساقفة لداوتله خطب موسى في الجميع موضعاً المنافع الكثيرة التاجمة عن التقرب الى القرب فلم يُز بوطر

وكان من جملة ما ورد في خطابه قوله: « ان البابا لا يطالب منا تضحية ولا شيئاً آخر يضرب بنا ويحجب بصراحننا بل يريد ان نحافظ على عاداتنا القديمة وليتورجيتنا وملكنا الاكليزيكية. ثم انه ياتي لنا الطقوس التي باشرها اجدادنا على ممر الاعصار الماضية واللغة التي رفنا بها في حالتنا السراء والضراء. أصوات الوطن الارضي نحو الوطن

الساوي. وليس ذلك قط بل يريد منا ان نحفظ الكهنة والاحبار من دنا وسلالتنا وصلوات لتتنا والاتحاد مع كنيسة انطاكية القدسة والشركة مع اخواننا في السر واليسر ولا يُرْتَس علينا قطعاً رؤساء غرباء او يفرض استعمال لغة مجهولة وطقوس جديدة غير التي كانت لاجدادنا. وان كانت رومية تريد ان ترى منا تلامذةً للسبح اعظم كالأ فلا تلزمنا ببحرود اصلنا ونسيان ماضينا. وغاية ما يطلبه منا ييوس الثاني هو ان نتعرف بما اعترف به آباؤنا منذ اعصار طروية اعني اولية خلفاء بطرس الرسول. على ان بطريكية انطاكية لا تدعي بحمد الله ما تدعيه بطريكية القسطنطينية ولا تلقب نفسها بالمسكونية فما الداعي اذاً الى اقتناء آثارها وسلوك منهاجها

« واذا كانت رومية لم تولّ علينا في الماضي رؤساء اجانب فلم تتصرف معنا مثل هذا التصرف بطريكية القسطنطينية لان بطاركة هذه الكنيسة اي كنيسة القسطنطينية لا تهتمّ إلا بتنافع اليونان وصورالحهم وقد ابدت لنا التجارب اننا كما حاولنا اقتراياً منهم عاد ذلك بزيد الضرر على استقلالنا الديني والوطني ومن منكم لا يتذكر البطريرك ثيادورس بلسامون الذي نصبته القسطنطينية على بطريكية انطاكية وما اتار من الحرب الشديدة على ليتروجياتنا وعاداتنا (١) أفأ كان الاجدر بنا ان نتعظ من هذا الامر ومدته ونتخذ الحيلة لانفنا

« ولا يخفّك اننا عشنا مع العرب مدة اعصار طروية على اتم وفاق وسلام وكانت تلك الأيام كما تلمون افضل ايام تاريخنا بل يمكننا ان نثبت اننا ما انفصلنا قط انفصلاً تاماً عنه او بالحري ان هذا الانفصال لم يعمّ البطريركية. وماذا يا ترى غنمنا من وراء الانفصال أو ليس التاريخ افضل شاهد على اننا لم نجبر غير الحران. اما ترون ان الانفراد ليس بكافل لعادة صاحبه بل انه مجلبة لفقدته. ام ليس الافضل ان يعتمد المرء على ذي ساطة قويّة لا يريد له غير الخير والسلا. واذا اتحدنا مع الكاثوليك نصير مع محافظتنا على استقلالنا الخاص مرتبطين مع سائر العالم المسيحي وعمدنا البابوية بماوتها الادبية كما يمدنا الغرب كله بمضد وين علينا بميله وارتياحه »

وكان لهذا الكلام الذي فاه به موسى رئيس الشمامسة رقع عظيم في الحاضرين حتى اقتنع به كثيرون من الاساقفة وعضدوه لانه في القرن الخامس عشر لم يكن من

وجرد لآخوية القبر القدس اليونانية فكانت بطريكية التسطنطينية لا تستطيع ان
بتصرف بانطاكية كما تشاء وتريد على مثل ما جرى بعد ذلك مما عاد بالضرر العظيم
على الكنيسة الملكية

على ان هذه الكنيسة قد شعرت في أواخر القرن التاسع عشر بما يهددها من خطر
ضياع استقلالها الديني فقامت من ثم تسرده شيئاً فشيئاً وطلقت حماية الفناء وانكرت
وحدة الاصل بين اليونان والملكية (١) وان كان قد حامى عن هذا الامر الاولون لاغراض
لا تخفى

غير ان كل الادلة التي اتى بها الاساقفة الراغبون في الاتحاد لم تنور على اقتناع ذلك
الشيخ الجبان فكانت غاية ما عمله انه قرّر وجوب الشكر للبابا بيوس الثاني
على عواطفه الحسنة نحو الكنيسة الشرقية. وكان يظن انه بهذه الطريقة يتحاشى الدخول
في اساس مسألة الاتحاد دون ان يتطلع الملائق مع رومية

وبعد ان قام موسى بما يجب عليه في انطاكية كان اول خاطر خطر له ان يزور
شقيقته راحيل التي طال عهد غيابه عنها فخص الى طرابلس واستصحب شقيقته
الصغرى حنة وسار الاثنان الى قصر البترون وكان وصولهما اليه قبل رجوع زين وقربته
ببضع ساعات من جزيرة البجيرة

ولو ان هذا الشقيق الشقيق وصل الى البترون قبل ذلك الوقت بأسرع واحد لادى
قدومه بلا ريب الى تجديد الاحزان على تلك القرينة المهلة. امأ الآن وقد وافى بعد
امتراج الزوجين فقد شمل الفرح قصر البترون ولاسيا راحيل التي كانت قد دنت
الماضي في قبر النسيان وآلت ان لا تذكره

وتحدث موسى ملياً مع القدم زين عن مدينة رومية وسائر المدن الايطالية التي
زارها. وقد سأله القدم عن البندقية التي كانت سفانها تأتي في مواقيت معينة الى
طرابلس وبيروت (٢) وتقف بعض الاحيان في مياه أنفة البترون

وكان موسى قد مرّ على مدينة جنوة التي نشأت فيها أسرة لبرياك قديماً ولدى
عودته من اوربة عرّج على قبرس لمشاهدة آثر فرع بقي من اسرته التي هاجرت من

(١) الراج الزكي والمشرق (٤: ٦٧٠ و ١١٣٤ الخ)

(٢) راجع هيد: تاريخ تجارة الشرق والقائشدي

سورية الى تلك الجزيرة ولم يلبث المذكور ان توفي بعد سنوات قليلة غير تارك عقباً (١) وفي مروره على مانتوة لاقى مندوبي الجزائر اليونانية ذاهبين الى رومية لاجل طلب حماية البابا. وتحدث ايضا مع مندوبي دوق بوزغندية. ولما علم المذكور ان موسى رئيس الشمامسة آت من سورية اخذوا يستعلمونه عن الاب يوحنا الذي كان اميرهم يشاق الى سماع اخباره

ولما عاد موسى الى رومية بعية الحاشية البابوية وصل اليها الامير توما احد امراء اليونان من سلالة ملوك باليولوخ وكان فاراً من وجه اعدائه وحاملاً ذخيرة نفيسة وهي رأس اندراوس الرسول (٢) فلما وصل بالذخيرة المذكورة استقبلتها المدينة الالزية بما لا مزيد عليه من الاحتفالات والتكريات. وقصارى القول ان موسى اطلع في كل محل مر به على نهضة الكنيسة الكاثوليكية وسطورة البابوية وكان دائماً يقابل هذا النجاح والتقدم مع ما يراه في الكنائس المنفصلة من التأخر. ولم يكن امر كهذا يخفى على بصيرة وقادة كصيرة موسى المذكور

وبعد ايام عزم المذكور على الذهاب الى بشراي لمواجهة التقدم رزق الله وصدده عن ذلك صهره التقدم زين الذي اطلعه في الوقت نفسه على كل ما جرى من الحوادث في جبل اللكام وفي ناحية بحيرة قدس

٢٥

بعد ان مضت ايام قليلة على سفر مقدم البترون اخرج الاب يوحنا من محبسه بأية غير مألوفة

وكانت شواطئ البحيرة في ما مضى هادئة مقترنة لا حركة فيها غير انها تحولت في ذلك اليوم الى عكس ما كانت عليه فاكنت ترى غير رجال وخيل ولا تسمع سوى صراخ وضجيج وازامر تصدر الى الزعما. مصحوبة بصليل اللاح وبريق السيوف والرماح والدرع المتلألئة تحت انوار الشمس. وكانت الزوارق والقوارب تتجه من كل انحاء البحيرة والسد وقرى قطينة وزمارية وكفرعبدة ذاهبة الى تلك الجزيرة الصغيرة

(١) دوكانج : كتاب الأسر

(٢) باسور

والتفت الاب يوحنا من نافذة كونه فرقع بصره الضعيف على جمع غصير يتأرجح على ضفاف البحيرة وقوارب عديدة سائرة نحو الجزيرة بركابها فرأته هذه الحركة رقت نماً شاهد من السلاح والجنود واخذ يحدث نفسه قائلاً: «أترى هم آتون لينقاروني من سجنني هذا الى سجن آخر؟ وهل تردد راحيل والاب يرومانوس ايقظ ظنون جوسلين فرأى ان حالتي في متفاي لم تول خفيفة محتسبة فجزم بابهادي الى حيث اذوق مرارة اشد؟» وتذكر اذ ذلك بارتماش ما قاسى من الجهد والمشقة في سفره من دير الصليب الى بجيرة قدس وما تكبد من فظاظة البدو الذين ساقوه اليها

وبينا هو في هذه الافكار كانت القوارب قد وصلت الى شاطئ الجزيرة وفي مقدمتها زورق خرج منه اثنان اول الجميع وكان احدهما طويل القامة شاك السلاح يدل ظاهره على انه زعيم تلك الجماعة نظراً لما كان يحف به من الاكرام والاعتبار. واما الآخر فكان اكبر سناً ومتردياً بلباس راهب. وما كان غير قليل حتى وصل المذكوران الى كوخ الاب يوحنا فبادر الاول وقبل يديه باحترام وانطرح الثاني عليه فمانته بانصاف وكان الاول الامير رزق الله والثاني فراغريون

واول ما وقع بصر الامير رزق الله على ذلك الرجل الباو خاطبه قائلاً:

نحمد الله اننا التقينا بك في آخر الامر

فقال ذلك الشيخ الجليل: ان الله سبحانه لم يسمح بموتي قبل ان يزييني بان ابارك ولدًا احبه وأعاقب رصيفاً قد طالما صحبته في سبيل خدمة الخالص

قال هذه الكلمات والتفت الى فراغريون وعانقه طويلاً وهو يذرف الدمع فعمل هذا المشهد المرث في كل من حضره. ولاسيا الامير رزق الله الذي لم يكن يقوى على تحويل بصره عن وجه منتهه وغارس العواطف انشريفه فيه. وكانت الاوجاع التي قاساها الحيس في السنين الاخيرتين من حياته قد خلفت فيه آثاراً بدل على ما كان تأثيرها عليه فان لحية كانت قد ابيضت كالثلج وحياه قد استطال ودق وعينه قد غارتا تحت الحجاج ورجليه قد خارتا فصار اذا مشى يتوكأ على العصا. غير ان صوته لم يتغير وظل محافظاً على ما فيه من لطف وحلاوة وكان اذا تكلم أشرف دائماً بما يكفه ذلك الشيخ الجليل من نفس عالية وعواطف سامية

ولما نظره المقدم رزق الله على هذه الحال فاضت الدموع من مقلتيه ولم يستطع

ككان ما جاش في صدره من الغضب على الذين عذبوا هذا الاب القديس فقال:
يا لهم من برايرة كيف اسازوا معاملتك. غير ان الاب يوحنا تظاهر بانهُ لم يسع
ما قيل له فاستأنف الكلام ممسكاً بيد فراغريون والامير رزق فقال:
الشكر لكما كل الشكر اذ اتيتما لتفضا عيني هذا المنفي السكين. الان استطيع
ان اموت مطمئناً لاني رأيتكما وضمتكما بين ذراعي. اللهم انك اوليتي عبادة
عظيمة لم اكن استحقها

فقال الامير رزق الله: لا تتكلم هكذا يا ابي لان الله انما جمعنا حتى لا يفرق
بيننا ولقد علمت بكل ما قاسيتهُ من النكد والايجاج ولت نفسي كل اللوم على كوني
لم اعرف كيف اتلافى كل ما حل بك ولست نادماً الا على انك صددتني عن اترال
غضبي بالمتافق جوسلين ولا ريب انك تتذكر ذلك. غير اني عازم على تعويض الشر
الذي لم استطع تداركه. واعلم ان محبتنا النبوية تعرف كيف تنيك مرارة الزمن
الماضي. وفي الختام اقول لك ان يد الله العادل قد ثقلت على من كان يضطهدك
- اُعلى جوسلين؟ قل يا ابني هل حدث له سره؟

- لم يعد بين الاحياء.

- هل مات؟ وكيف؟ هل عرف ضلالتهُ؟ وهل استنفر الله والبشر؟ ولا ريب
انك يا فراغريون كنت حاضراً فاخبرني هل عاند ما بذلت له من التصانح حتى يتيب
الى الله

فقال فراغريون: انه مات كما عاش دون ان ييدي أسناً على الماضي ولقد حاولت
كثيراً ان أغير قلبه الجاسي فذهب السعي باطلاً
وهنا قال الامير رزق الله: ان المشقة قضت اخيراً قضاء عادلاً على حياة مشحونة
بالآثم والجرائم

فقال الحيس متوجعاً: ماذا تقول يا ابني هل مات جوسلين دون ان يسدمر على
اساءاته؟ ثم خفض صوته واخذ يقول في سره: ولكن كم من مرة قدّمت اوجاعي بل
قدّمت حياتي ايضاً لاستدر له نعمة الاعتراف بذنبيه قبل ان يقف امام منبر الديان
الرهيب. كلالا اظن ان عملي ذهب باطلاً ويلزمني ان اصلي وابتهل من اجل هذا الضال
(الباقى للآتي)

الشي